من علماء التفسير في القرن العاشر الهجري

العلامة عصام الدين الإسفراييني

873هـ /1488م ــ 945هـ /1538م

د. تبسم منهاس*

ولد العلامة عصام الدين الأسفراييني عام 873هـ الموافق 1468م في مدينة "أسفرايين"، وكان ذلك في عهد السلطان العثماني محمد الثاني الفاتح بن مراد خان والذي حكم من سنة 855هـ/1451م وحتى عام 886هـ/1481م، ولذا نجد من المناسب أولاً أن نقدّم نبذة عن أسفرايين مسقط رأس العلامة عصام الدين.

إسفرايين

ولد العلامة عصام الدين الأسفراييني عام 873هـ الموافق 1468م في مدينة "أسفرايين"، وكان ذلك في عهد السلطان العثماني محمد الثاني الفاتح بن مراد خان والذي حكم من سنة 855هـ/1451م وحتى عام 886هـ/1481م.

ومدينة "أسفرايين" كما يصفها مؤلف تقويم البلدان: "أسفرايين" بالفتح ثمّ السّكون وفتح الفاء وراء وألف وياء مكسورة وياء أخرى ساكنة ونون، بليدة حصينة من نواحي نيسابور على منتصف الطريق من جرجان، واسمها القديم "مهرجان"، وتقع في الشمال الشرقي من خراسان، وجنوبي أترك، على مسيرة خمس مراحل من نيسابور، أما اسمها القديم وهو "مهرجان" فكان يطلق على قرية مجاورة، وقد أطلقه بعض الملوك على أسفرايين لخضرتها ونضرتها، وأما اسمها: "أسفرايين"، فيقول أبو القاسم البيهقي أنّ أصلها من "أسبرايين" بالباء الموحدة، و"أسبر" بالفارسية هو الترس، و"آيين" هو العادّة، فكأنهم عرفوا قديماً بحمل التراس، فسميت مدينتهم بذلك، وقيل بناها "أسفند يار"، فسميت به، ثم غير لتطاول الأيام عليه، وتشمل ناحيتها على أربعمائة وإحدى وخمسين قرية، وقال "أبو الحسن علي بن نصر الفندروجي" يتشوق أسفرايين وأهلها :

---

* محاضرة بمركز الشيخ زايد الإسلامي بجامعة بنجاب.

سقى الله في أرض أسفرايين فما تنتهي العلياء إلا إليهم عصبتي

وجربت كل الناس بعد فراقهم فما ازددت إلا فرط ضن عليهم[1]

ويشتهر إقليم "أسفرايين" بجودة أعنابه، وكثرة حقول الأرز فيه، وقد احتلها المغول عام 617هـ /1220م، كما خربت في غزوة الأوزبك قبيل عام 1006هـ /1597م.

وينسب إلى "أسفرايين" خلق كثير من أعيان الأئمة، منهم "يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الأسفراييني" أحد حفاظ الدنيا، سمع بالموصل من "علي ابن حرب الطامي"، وسافر في طلب الحديث إلى البلاد الشاسعة. ومنهم "أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأسفراييني"، و "أبو عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بن يزيد"، وغيرهم خلق كثير من علماء الدين ومختلف العلوم والمعارف[2].

نسب العلامة عصام الدين الأسفراييني ومولده

هو العالم العلامة، والبحر الفهامة، جليل الذكر، المحدث، المفسر، المتكلم، المولى "عصام الدين إبراهيم بن محمد بن عربشاه الأسفراييني"، الحنفي، الأشعري. ينحدر العلامة "عصام الدين الأسفراييني" من نسل الفقيه العظيم، والمتكلم الجهبذ "أبو إسحاق الأسفراييني"، وكان جده "عربشاه" ــ والذي كان على قيد الحياة زمن أولاد السّلطان "تيمور لنك" ــ شاعراً فحلاً، وأديباً مجيداً، وكان معاصراً لـ "العضدي" شارح "المختصر"، ويعدّ من فضلاء وعلماء ذلك العصر.

ولد العلامة "عصام الدين الأسفراييني" حوالي عام 873هـ الموافق 1488م في ناحية "أسفرايين" من قرى "خراسان"، في بيت من بيوت العلم والمعرفة والأدب، فقد كان جدّه الأعلى "أبو إسحاق الأسفراييني" أحد حفّاظ الدنيا، وكان جده "عربشاه" سابق الذكر من مشاهير العلماء المعاصرين لـ "العضدي" شارح "المختصر" كما سبق أن ذكرنا[3].

مكانة العلامة عصام الدين العلمية

حقيقة الأمر أن ما كتب عن العلامة "عصام الدين الأسفراييني" قليل جداً بالمقارنة مع مكانته العلمية، ولم نعثر له على ترجمة كاملة شافية، اللهم إلا بعض المعلومات المتفرقة في بطون الكتب هنا وهناك، ولكننا

بالرغم من ذلك نستطيع أن نقرر أن العلامة وصل إلى المكانة العلمية اللائقة به وبفضله، فقد ولد في بيت علم وفضل، وتتلمذ على أيدي مشاهير وعلماء مدينته، وكان من بيتهم والده الجليل "محمد بن عربشاه"، والذي كان يعد من أكابر علماء عصره، وبالطبع كان له دور كبير في تعليم ابنه وتربيته تربية علمية فاضلة، وكان من بين أساتذته إمام النحو، وشارح " الكافية " المشهور، الشاعر الفارسي الكبير "عبد الرحمن الجامي : 817هـ / 1414م - 898هـ / 1492م"[4]، وكان من نتيجة هذا التعليم وهذه التربية أن أصبح "عصام الدين" موسوعة للعلوم والمعارف وعلماً من أعلامها، فقد كان ــ رحمه الله ــ متمكناً من علوم كثيرة ومجيداً لها مثل التفسير والحديث والفقه واللغة والأدب والمنطق والفلسفة والعقائد وعلم الكلام.

ولهذا فإننا أمام هذا التبحر العلمي الذي امتاز به العلامة "عصام الدين" نفرد له مكاناً مرموقاً في صفوف كبار العلماء من أمثال العلامة "البيضاوي"، والعلامة "الباقلاني"، والعلامة "الملا علي القاري" والعلامة "التفتازاني" وغيرهم ممن هم في درجتهم.

وبعد أن انتهى العلامة "عصام الدين" من دراسته عينه السلطان "حسين" أستاذاً في مدرسة "شاه رخ مرزا" عام 935هـ /1528م، ثم هاجر بعدها إلى "بخارى" حيث قربه السلطان "عبيد الله خان بن محمود الشيباني"[5]، مما يدلنا على أن العلامة "عصام الدين" حاز شهرة وكنته من أن يكون مطلوباً ومرغوباً لدى حكام عصره، ولم تأت هذه الشهرة من فراغ، بل كانت لتبحره العلمي، وجديته في طلب العلوم في مختلف فروع المعرفة، ونستطيع بسهولة أن نلمح هذا التبحر العلمي، ونلمس خدماته العلمية من خلال إلقاء نظرة على مؤلفاته العديدة التي تعكس إمكانياته في البحث، كما يمكننا التعرف على مكانته العلمية الرفيعة بإلقاء نظرة أيضاً عى قائمة تلامذته وطلابه الذين سجلوا اسم أستاذهم بحروف من نور، وذلك بفضل خدماتهم الجليلة والمتنوعة في ميدان العلم.

مؤلفات العلامة عصام الدين

تدور مؤلفات العلامة "عصام الدين الأسفراييني" حول علوم النحو واللغة والبيان والنصوف والحديث والتفسير والمنطق، ولم يطبع من مؤلفاته هذه إلا قلة قليلة، كما أننا لم نعثر إلا على خمسة وعشرين كتاباً

فقط من مؤلفاته العديدة، وفيما يلي بيان بأسماء هذه الكتب:

1. ميزان الأدب[6]. مطبوع، وهو في الصرف والنحو والبيان، وأوله : "الحمد لله المنان.... الخ"، ثم شرحه بعض من الفضلاء قيل منهم الفاضل "التاشكندي محمد"، وأول هذا الشرح : "نحمد الله بجميل أسمائه... الخ"، وسماه "عجالة البيان في شرح الميزان".
2. رسالة في بيان النسب بين القضايا[7].
3. رسالة في تحقيق المحصورات الأربع[8].
4. رسالة في مبحث تقسيم القضية[9].
5. رسالة في الاستعارات البديعية والحقيقة والمجاز، وهو بالفارسية[10].
6. حاشية على تفسير "البيضاوي"[11]، وقد حققناها[12].
7. حاشية على آداب "السمرقندي"، وهو "محمد بن أشرف الحسيني السمرقندي" الحكيم المحقق، صاحب "الصحائف" و "القسطاس"، المتوفي في حدود عام 600هـ، وهي أشهر كتب الفن ــ آداب البحث ــ ألفها "نجم الدين عبد الرحمن"، وجعلها على ثلاثة فصول، الأول في التعريفات، والثاني في ترتيب البحث، والثالث في المسائل التي اخترعها، وأول هذه الرسالة: "المنة لواهب العقل...الخ"، وتعتبر حاشية العصام على هذا الشرح من أدقّ الحواشي التي كتبت عليه[13].
8. شرح الرسالة الترشيحية في أقسام الاستعارات، والرسالة لـ "أبو القاسم السمرقندي الليثي"، وهي في أقسام الاستعارات على ست فرائد[14].
9. شرح الشمائل في حقوق أفضل الورى وأقوى الدلائل، وهي موجودة بدار الكتب الشامية[15].
10. الأنوار من مطالع الأنظار، وهو في علم الكلام[16].
11. الأطول، وهو شرح على تلخيص المفتاح، وسماه العلامة "عصام الدين" بهذا الاسم "الأطول" في مقابلة شرحه "المطوّل" للعلامة "التفتازاني"، وهو شرح ممزوج عظيم، وأوله: "الحمد لله على كل حال، كما يستوعب مزايا الأفضال... الخ"[17].
12. شرح على رسالة آداب البحث للقاضي "عضد الإيجي"،

وهو "عبد الرحمن بن أحمد الإيجي" المتوفى سنة 756هـ، وقد بين قواعدها كلّها في عشرة أسطر أولها: "لك الحمد والمنة... الخ"، وأولّ شرح العلامة "عصام الدين" عليها هو: "نحمدك يا من لا ناقض لما أعطيت...الخ"، وهذا الشرح مخطوط في مكتبة أوقاف"بغداد"[18].

13. شرح العقائد العضدية للقاضي "عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي"، وأوله: "الحمد لله على نواله... الخ"، وهذه الرسالة للقاضي "عضد الدين" مختصرة مفيدة، ولما أتمّها القاضي قضى نحبه بعد اثني عشر يوماً، فهي آخر ما ألّف عام 756هـ[19].

14. شرح على أصل الكافية لـ "ابن الحاجب"[20].

15. حاشية على شرح "الجامي" على الكافية لـ "ابن الحاجب"، وردّ العصام فيها على أستاذه "الجامي" في كثير من المواضع، وناقض مع "المولى عبد الغفور" ــ وهو أحد تلامذة "الجامي" أيضاً، ومعاصر للعصام ــ وعلى حاشية العصام هذه حاشية لـ "المولى محمد" الشهير بـ "ملا زاده الكردي" المتوفى بعد سنة 1070هـ[21].

16. شرح على شمسية المنطق، وكتبه في مقابلة شرح كتبه العلامة "التفتازاني"[22].

17. حاشية على أول شرحه القطبي المشهور[23].

18. حاشية على حاشية السيد الشريف.

19. حاشية على " كبرى " المنطق، وهو شرح بالفارسية.

20. شرح على قول شارح "الشمسية": "قدجرت عادة المصنفين...الخ".

21. رسالة في شرح قوله:"إن كل ج. ب. يعبر تارة بحسب الحقيقة... الخ".

22. حاشية على شرح العقائد النسفية لـ "التفتازاني"، وأول الحاشية: "الحمد لله الذي دعانا إلى دار السلام...الخ"، وهو حاشية تامة لطيفة العبارة، دقيقة الإشارة كما هودأب المحشّي في مؤلفاته[24].

23. الفريد في النحو، وله شرح عليه أيضاً[25].

24. شرح على محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين لـ "الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي"، وأوله : "الحمد لله المتعالي بجلال أحديته... الخ"[26].

25. حاشية على الهداية، وصل فيه إلى كتاب البيع، وأولها : "نحمدك يا من توجد من هدايتك وقاية... الخ"، وقد ألفها بالتماس من "عبيد الله خان"، وفرغ من إتمام الثلث الأول في ربيع الآخر عام 934هـ[27]

وهذا ما استطعنا جمعه من مؤلفات "العلامة عصام الدين الأسفراييني"، وبذلنا في سبيل ذلك غاية جهدنا، إذ لا يوجد من كتب مصنفاته أو جمعها في كتاب واحد، ولذا كان علينا أن نجوب المكتبات ونتجول بين أرففها وأغلفة كتبها، حتى عثرنا على هذه المصنفات، ولعله ألف أكثر منها.

وفاة العلامة عصام الدين

هناك اختلاف وإن كان بسيطاً حول تاريخ وفاة العلامة "عصام الدين الإسفراييني"، فقد ذكر "ابن العماد" في "شذرات الذهب"، نقلاً عن "تاريخ أخبار البشر" أنه مات في "سمرقند" عام 943هـ. أما "خير الدين الزركلي" فقد أثبت وفاته في كتابه "الأعلام" عام 945هـ، وأكثر المؤرّخين على أنه مات بـ "سمرقند" عام 945هـ/1538م، ودفن قرب الشيخ "عبيد الله النقشبندي"[28]

تلامذة العلامة عصام الدين

وللعلامة "عصام الدين الإسفراييني" تلامذة كثر، نذكر منهم على سبيل المثال:

1. السيد الفاضل المتكلم الفقيه "الأمير أبو الفتح الشرفي الشريفي الحسيني الشيعي الإمامي".
2. القاضي "كمال الدين أبو سعد علي بن مسعود الحكيم الفرحان" صاحب كتاب "المستوفي" في النحو.
3. "سعيد العجم" المشهور بـ "النجم سعيد" شارح "الحاجبية".
4. "عبد الله بن علي بن إسحاق الصيمري" مصنف كتاب "التبصرة".
5. "إبراهيم بن يحي أبو إسحاق" النحوي، صاحب كتاب "المنخل".

6. "إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الطرابلسي"، المعروف بابن الأجدابي".
7. "أبو موسى عيسى بن مروان الكوفي"، وصنف كتاب "القياس"[29].

وفيما يلي نقدم باختصار للعلامة البيضاوي صاحب التفسير الذي كتب عليه العلامة عصام الدين حاشيته.

العلامة البيضاوي

هو شيخ الإسلام، عالم آذربيجان، إمام أئمة المجتهدين، وأفضل المتأخرين، العالم العلامة، أفضل القضاة، وكبير المفسّرين، صاحب "أنوار التنزيل وأسرار التأويل"، المعروف بالبيضاوي، واسمه عبد الله بن عمر، وكنيته أبو الخير، ويذكر البعض أن كنيته أبو سعيد، وقد ولد في مدينة "بيضا" بإقليم فارس[30].

هذا ولم يمكن حتى اليوم معرفة عام ولادته على وجه التحديد، إذ أن كتب التراجم لا تذكر شيئاً في هذا الموضوع، كما لا نعثر على أية معلومات فيما أمكن الحصول عليه من مخطوطات للمؤلف، ولا نجد له ذكراً في كتب التواريخ إلا في عام 670هـ عندما ولي القضاء، ولهذا فإننا إن أردنا تحديد وقت ولادته يمكننا القول بأن هذا كان قبل ثلاثين أو أربعين عاماً من عام توليه القضاء على وجه التقريب، إذ أن والده "عمر بن محمد" كان قاضياً على شيراز، وعندما وافته منيته عام 673هـ تولى البيضاوي منصب قاضي القضاة مكانه، وإن كان قد ولي القضاء قبل وفاة واله بثلاث سنوات، ولهذا فمن الممكن أن يكون عمره وصل إلى أربعين عاماً على أكثر تقدير حين ولي قاضياً، حتى وإن كان عمره في ذلك الوقت أقل من ذلك فلا حرج، فهو من بيت من بيوت العلم والمعرفة، ولذا لا نستبعد أن يصبح قاضياً في وقت مبكر من العمر[31].

تعهد والد البيضاوي القاضي إمام الدين أبو قاسم عمر بن فخر الدين محمد بن صدر الدين علي البيضاوي ابنه بالرعاية منذ وعى، وعمل على إرشاده وتعليمه إلى أن توفاه الله، فدرسه علوم الدين كلها، وخاصة الفقه، إذ أن علم الفقه من أهم العلوم بالنسبة للقاض، ولا نعرف إن كان العلامة رحمه الله قد سافر في طلب العلم أم لا، إلا أننا يمكننا القول بأن العلامة قد تأثر بشكل غير مباشر من نظريات وتعاليم الإمام الغزالي الذي كان

شافعي المذهب[32]، وذلك عن طريق والده الذي تتلمذ فكرياً هو الآخر من تعليمات الإمام الغزالي، ولذا نجد أثراً واضحاً لأسلوب الإمام الغزالي على أسلوب البيضاوي، وبالتالي يمكننا القول بأن المعلم الأول للعلامة البيضاوي كان والده، والثاني كان الإمام الغزالي، أما الثالث فهو "خواجه محمد بن محمد الكحتائي" والذي صار شيخاً للعلامة في أواخر حياته.

حقيقة الأمر أننا لا نعرف الكثير عن سيرة حياة العلامة البيضاوي، إذ لم نعثر إلا على أقل القليل مما لا يسمن ولا يغني من جوع، وهكذا فإننا لم نستطع أن نعرف إن كان البيضاوي قد عقب أم لا، وربما لم يعقب، ويقوي هذا الافتراض اتجاهه في أواخر عمره إلى الزهد والتقشف، إذ لو كان رزق بأولاد لكنا قد عثرنا لهم على ذكر في كتب التراجم والرجال، سواء اتصفوا مثله بحميد الصفات أم العكس، ولكننا لا نجد لكل هذا أثراً في كل ما عثرنا عليه من تراجم له.

مؤلفات الإمام البيضاوي

كان البيضاوي عالماً عظيماً، يكن له كبار العلماء الكثير من الاحترام والإجلال، أمضى حياته في القضاء وتحمل أعباءه، ولذا كانت أكثر مؤلفاته في علم الأصول وعلم الكلام والفقه والمنطق، كما كتب في النحو واللغة والمعاني والبيان والتصوف والحديث والتاريخ وغيرها من العلوم، ولقد اختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً في عدد مؤلفاته وأسمائها، فمنهم من عدها أربعاً، ومنهم من عدها خمساً، ومنهم من عدها أكثر من ذلك، وعندما نوائم بين كل هذه الروايات يصبح العدد اثنين وعشرين كتاباً، طبع القليل منها، كما أن أكثرها لم يعد موجوداً، ليس هذا فقط، بل إن الحافظ الذهبي ذكر أن له أكثر من ألف مؤلف، كلها في العلوم المتداولة والرائجة في زمانه، من بينها التفسير والحديث والسياسة وغيرها. على أية حال ندرج في السطور التالية أسماء المؤلفات التي ثبتت له بشكل قاطع :

1. أنوار التنزيل وأسرار التأويل: تفسير.
2. منهاج الوصول إلى علم الأصول: فقه.
3. نظام التاريخ، رتبه سيد منصور حسين مع جواشي بالأردية – طبعة حيدر آباد الدكن عام 1930م.
4. الغاية القصوى في دراية الفتوى.

5. لب اللباب في علم الإعراب: صرف ونحو.
6. موضوعات العلم وتعاريفها.
7. طوالع الأنوار من مطالع الأنظار: علم الكلام.
8. مصباح الأرواح.
9. مختصر الوسط للإمام الغزالي.
10. شرح المصابيح في الحديث[33].
11. تعليق على مختصر ابن الحاجب.
12. شرح المحصول.
13. الإيضاح في أصول الدين.
14. شرح التنبيه.
15. شرح الكافية في النحو.
16. شرح المطالع.
17. شرح المصابيح للإمام البغوي.
18. شرح الأخلاق في التصوف.
19. شرح مختصر ابن الحاجب في الأصول.
20. شرح المنتخب للإمام فخر الدين الرازي.
21. الإنصاف في شرح الشواهد[34].

تفسير العلامة البيضاوي :

بدأ العلامة البيضاوي العمل في تفسيره بعد عام 677هـ، والحقيقة أنه من الصعب تحديد العام الذي بدأه فيه، إذ أننا لا نعرف أيضاً العام الذي سافر فيه البيضاوي إلى تبريز على وجه القطع، وقياساً نستطيع القول أنه عندما حدث التمرد عام 677هـ في شيراز، وقتل خلق كثير، وهرب آخرون، فمن الممكن أيضاً أن يكون العلامة هو الآخر قد خرج من شيراز إلى مكان آخر غير معلوم، إذ لو أنه كان قد انتوى الخروج من شيراز إلى بلد معين لكان خرج إلى بغداد، ثم تبريز، لكننا لا نجد لذلك ذكراً، لا بين مشاهير بغداد، ولا بين الذين وفدوا على بغداد من خارجها، ولذا فإننا نميل إلى أنه خرج إلى الشمال حيث أصفهان وهمدان، ومنها إلى تبريز، ولا نعرف المدة التي قضاها في السفر، لكنه لما وصل إلى تبريز ولي منصب قاضي القضاة مرة أخرى، وهناك بايع الشيخ محمد بن أحمد الكحتائي، ويروي الخفاجي وحاجي خليفة سبب كتابة البيضاوي

لتفسيره قائلين : "فلما أتاه على عادته قال إن هذا الرحل عالم فاضل يريد الاشتراك مع الأمير السعيد، يعني أنه يطلب منكم مقدار سجادة في النار، وهي مجلس الحكم، فتأثر الإمام البيضاوي من كلامه، وترك المناصب الدنيوية، ولازم الشيخ إلى أن مات، وصنف التفسير بإشارة من شيخه"[35].

إلا أن محمد باقي يروي هذه الواقعة قائلاً بأن أول عمل قام به العلامة البيضاوي عندما وصل إلى تبريز هو كتابة التفسير، والتقرب به إلى السلطان، وبالفعل كتب التفسير وقدمه إلى السلطان الذي أثنى عليه ومدحه قائلاً له : اطلب ما شئت مقابل هذا العمل، فطلب العلامة البيضاوي منصب قضاء مدينة بيضا، حتى ترتفع مكانته في نظر أهل المدينة[36]، وبالفعل ولي القضاء[37]. ويرى البعض أن البيضاوي حين كتب تفسيره أراد أن يقدمه إلى أرغون خان المغول الذي كان يعسكر بجيشه في تبريز في ذلك الوقت، لكنه لم يتمكن من الوصول إليه بسبب ضخامة الجيش، عندئذ ربط العلامة البيضاوي الكتاب على راية، وظل يغدو ويروح حول الجيش لعل نظر السلطان يقع على الراية فيراه، وبالتالي ينال الرعاية السلطانية، وقد حدث هذا بالفعل، وهناك روايات أخرى لا نرى لذكرها أهمية.

وحقيقة الأمر أن تفسير البيضاوي كتب بإيحاء من الكحتائي، وأكمله البيضاوي وهو في صحبته، أما اسم التفسير الأصلي فهو أنوار التنزيل وأسرار التأويل، واسم الكتاب يعكس حقيقته، ويلقي الضوء على أسلوب العلامة ومنهجه، ولهذا التفسير مميزات كثيرة كانت سبباً في شهرته وخلود اسمه واسم مؤلفه.

مصادر تفسير العلامة البيضاوي

لم يذكر العلامة البيضاوي بشكل واضح وقاطع المصادر التي استقى منها تفسيره، إلا أن الدراسة الجادة للتفسير تظهر أن العلامة قد استفاد في تفسيره بالمصادر التالية :

1. الكشاف للزمخشري، متوفى 528هـ، وقد استقى منه البيضاوي الكثير فيما يخص الإعراب والمعاني والبيان، مما حدا بالكثيرين من النقاد إلى الحكم على تفسير البيضاوي بأنه نقل من الكشاف.
2. مفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين الرازي، متوفى 606هـ، ويطلق

على هذا التفسير اسم التفسير الكبير، نظراً لضخامته، وقد استفاد منه البيضاوي فيما يخص الفلسفة والحكمة وعلم الكلام.

3. تفسير الراغب، للإمام الراغب الأصفهاني، متوفى 503هـ، وقد استفاد منه البيضاوي فيما يتعلق بالاستقامة وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات.
4. تفسير ابن عباس.
5. كتب الحديث، وقد كانت هذه الكتب محور نظر العلامة البيضاوي عند كتابة تفسيره وإن لم يصرح بهذا.
6. كتب التجويد واللغة والنحو والأدب، ومن هنا نجد ذكراً لأسماء كثيرين من القراء المشهورين مثل حمزة ونافع وعاصم ويعقوب وغيرهم، كذلك يستشهد كثيراً بإمام النحو سيبويه، ويشير إلى لهجة قريش وبني تميم، ويذكر الأخفش، كما يستشهد بأشعار كثيرة من المعلقات والحماسة لأبي تمام.

هذا وقد كتبت حواشي وتعليقات كثيرة على تفسير البيضاوي من أشهرها حاشية العلامة عصام الدين الأسفراييني عليه.

وفاة العلامة البيضاوي

اختلف في وفاة العلامة البيضاوي اختلافاً كبيراً، فقال ابن كثير وغيره أنه توفي عام 651هـ، وقال السبكي والإسنوي أن وفاته كانت عام 691هـ، وقد توفي رحمه الله بمدينة تبريز ببلاد فارس[38]

أهمية "حاشية العصام" على تفسير البيضاوي

كان العلامة "عصام الدين الأسفراييني" مجيداً لعلوم العربية والفنون المعاصرة متمكناً منها، ولذا فإن "الحاشية" القيمة التي كتبها على تفسير "البيضاوي"، معتمداً فيها على توضيح نواحي الفصاحة والبلاغة والمسائل الفقهية ــ ولا تزال حتى وقتنا هذا غير مطبوعة ــ حظيت بمقام خاص منفرد، وهي في الحقيقة تساعد كثيراً على فهم القرآن العظيم بصفة عامة، وفهم تفسير "البيضاوي" بصفة خاصة.

وهناك بصفة عامة طريقتان لكتابة الحواشي والشروح، أولها أن يبقى متن الكتاب على حاله، ويضاف إليه شرح الشارح، أو الحاشية، ويطلق على مثل هذه الشروح "الشروح الممزوجة"، وتقابلنا هذه الطريقة في

شرح "الهداية"، أو شرح "نور الأنوار"، أو شرح "عقائد النسفي". وأما الطريقة الثانية فهي أن يتم اختيار الأجزاء والجوانب المغلقة، والصعبة على الفهم من المتن، ثم يقوم الشارح بشرحها، وتستخدم مثل هذه الطريقة عندما يكون المتن مدرجاً أعلى الورقة، عندئذ يمكن كتابة الحاشية أو الشرح أسفل الورقة، وحاشية "عصام الدين" محل الحديث تنتمي إلى هذه الطريقة الثانية، وهي التي اشتهرت جنباً إلى جنب مع تفسير "البيضاوي"، ولهذا فإنها أيضاً تتداول في المناهج الدراسية مع نفس التفسير.

وهناك جانب آخر من جوانب أهمية حاشية "عصام الدين" على "البيضاوي"، وهو أن العلوم التي كانت محل اهتمام العلامة "عصام الدين" هي بعينها تقريباً نفس العلوم التي استحوذت على اهتمام القاضي "البيضاوي"، ثم إن هذه الحاشية كتبت بعد تفسير البيضاوي بحوالي ثلاثة قرون، وهذا في الحقيقة يعطينا فكرة لا بأس بها عن الاتجاهات التفسيرية في هذه القرون الثلاثة.

وعند قراءة مقدمة حاشية "عصام الدين" تظهر لنا حقيقة هامة، وهي أن السلاطين العثمانيين كانوا معادين للشيعة، ويناصرون أهل السنة بشكل علني وصريح، وقد كتب العلامة "عصام الدين" حاشيته هذه باسم السلطان العثماني "سليمان بن سليم شاه بن با يزيد خان العثماني: 926هـ - 974هـ"، وقدمه في إهدائه إياه بهذا التقديم:

"كاسر جيش الشيعة الشنيعة، وموهن كيد الرفضة الوضيعة، وناصر جيش أهل السنة والجماعة، ومقوي جأش ارباب التوفيق والطاعة "[39].

ومن هنا فإن السمات العامة للحياة الدينية والاجتماعية والسياسية في ذلك العصر تبدو واضحة في هذا التقديم.

وكان من نتيجة شهرة ورواج هذه الحاشية أن كتبت لها عدة نسخ نجدها في المكتبات المختلفة، ومن بينها على سبيل المثال "المكتبة الآصفية" بالهند، ونسخة أخرى في مكتبة "استنبول" بتركيا، وثالثة في "المكتبة الهندية" بلندن[40]، ورابعة في "برلين" بألمانيا، في حين أننا وجدنا الجزء الأول لهذه الحاشية في مكتبة "بانكي بور"[41] بالهند، ولم نعثر للجزء الثاني على أثر.

وصف المخطوطة

من المؤكد أن "عصام الدين الإسفراييني" ألف كتابه هذا بعد عام 926هـ/1520م، وذلك لأنه ألفه، ثم أهداه إلى السلطان "سليمان الأول"، وقد تولى "سليمان" هذا العرش عام 926هـ/1520م، ولهذه المخطوطة عدة نسخ نذكر منها:

1. مخطوطة جامعة البنجاب : وتتكون من 727 صفحة من القطع المتوسط، وكتبت بخط دقيق، وبرسم الخط الفارسي، وتحتوي كل صفحة على 27 سطراً، وهي مليئة بالأخطاء اللغوية والإملائية، كما أنها خلت من العلامات والفواصل شأنها شأن باقي المخطوطات، وسقطت منها جمل وعبارات كثيرة، وأوراقها قديمة متهالكة، وربما تتلف قريباً إذا لم يهتم بأمرها، وهي موجودة بمكتبة جامعة البنجاب الرئيسية بـ " نيو كيمبس "، تحت رقم " 5762 ".
2. مخطوطة مكتبة " بانكي بور "، وهو مصورة على " ميكرو فيلم "، وحالة الفيلم على ما يبدو عادية، وقد أرسلت في طلبها من الهند، وبعد معاناة شديدة أرسلوا لي صورة مصورة عن الفيلم، وهي صورة غير واضحة، يعمها سواد الحبر من كل جانب، وعدد صفحات هذه النسخة 635 صفحة، وهي من القطع الكبير، وتحتوي كل صفحة على سبعة وعشرين سطراً، وهي موجودة بمكتبة " بانكي بور " تحت رقم " 18 (2) 65 – اند – شماره 84 "، وهذه النسخة كتبت بالخط النسخ، وقد خلت من العلامات والفواصل، كما سقطت منها عبارات وجمل كثيرة.
3. مخطوطة عطاء الله السندي، وكانت ملكاً لمن يدعى " فقير ملا موسى "، فاشتراها منه من يدعى " فقير محمد صالح "، ثم حصل عليها مولانا عطاء الله السندي، وله الشكر، وهي عبارة عن 429 صفحة من القطع الكبير، وتحتوي كل صفحة على تسعة وعشرين سطراً، وكتبت بخط بين النسخ والفارسي، وهي أيضاً مليئة بالأخطاء اللغوية والإملائية، ويسأل عنها الكاتب، ومع ذلك فهي أحسن حالاً من غيرها.
4. نسخة برلين – عدد 836 – 837.
5. نسخة متحف لندن، وهي موجودة تحت رقم: Or. 1193.

ونود أن نلفت النظر إلى أن نسخ هذه المخطوطة جميعها – ما عدا النسخة رقم: 1 – لا تحتوي على الجزء الأخير، أي الجزء 30، أما

النسخة رقم: 1، فهي الوحيدة التي تحتوي على هذا الجزء، وهو ليس منفصلاً عن الثمانية أجزاء الأولى، بل إن التسعة أجزاء كلها مجتمعة في شكل كتاب في هذه النسخة.

ونلاحظ على نسخ المخطوطة أن الكاتب لم يترك مسافات بين الألفاظ، فاختلطت بعضها ببعض، خاصة وأنه لم يضع أية علامات أو فواصل بين الجمل، وقد أدى ذلك إلى صعوبة شديدة في قراءتها وفهمها.

ومن أخطاء الكتابة أن الكاتب لم يفرق بين الدال والراء، فكتب الاثنين في شكل الراء، كما أن نقطاً كثيرة سقطت من فوق الحروف، فأصبحت الباء والتاء والثاء في كثير من الحيان بدون نقط، ولاحظنا أن الكاتب في المخطوطات الثلاثة – وهو ليس واحد على ما نظن – كان يرسم الكلمة رسماً بغير نقط عندما لا يستطيع أن يفهم ما ينقل عنه، فيكتب: "بل ينبغي أن يسعى" هكذا "بل ينبغ أن يسع : ص 275"، وهذا الأمر موجود بكثرة، ويلاحظ في صفحات : 276 – 279 – 282 – 326 وغيرها لمزيد من الإيضاح.

ومما زاد الأمر تعقيداً أن الكاتب في أحيان كثيرة ينقل قول "البيضاوي" دون أن يسبقه بـ "قوله" كما هو متعارف في النسخ كلها، وبالتالي يختلط كلام "البيضاوي" بكلام "عصام الدين"، وأحياناً أخرى كان الكاتب يضيف لفظ "قوله" في غير موضعه ووسط الكلام، فيظنه القارئ كلامه، وهو لـ "البيضاوي".

ومن الأخطاء الإملائية الكثيرة في المخطوطة أن الكاتب لا يفرق بين الهمزة على الألف، والهمزة على السطر، بل إنه لا يكتب همزة على السطر أبداً، وإنما يكتب كل الألفاظ التي تنتهي بألف عليها همزة مثل : مبتدأ – نشأ – قرأ هكذا: مبتداء – نشاء – قراء، وكذلك يخطئ كثيراً في كتابة التاء المفتوحة، فيكتبها مربوطة مثل: تفاوت، فيكتبها: تفاوة، والعكس أيضاً.

وقد استخدم الكاتب في النسخ الثلاث اختصارات معينة، بذلنا جهداً كبيراً في الوصول إلى مدلولاتها، وهذه الاختصارات هي :

1. عم : عليه الصلاة والسلام – عليه السلام.
2. المط : المطلوب.
3. الظ : الظاهر.
4. الخ : إلى آخره.

5. ح : حينئذ.
6. لا مح : لا محالة.
7. مص : المصنف.
8. مم : ممنوع.
9. م ص : المقصود.
10. يقا : يقال.
11. آه : الخ.

ومن الأخطاء الشائعة في المخطوطة أخطاء المذكر والمؤنث، فالكاتب كثيراً ما يؤنث المذكر، ويذكر المؤنث، ولا تخلو صفحة من صفحات المخطوطة في نسخها الثلاث التي بين أيدينا من عدة أخطاء قواعدية في المذكر والمؤنث، ويسأل الكاتب عنها..

وأخيراً فإن كاتب المخطوطة قد دمج العبارات والفقرات مع بعضها البعض، فلا تعرف من أين بدأت الفقرة، أو أين انتهت، إلا بعد تحقيق وتدقيق.

حاشية العصام

إن أول ما يلفت النظر في شرح "عصام الدين" هذا هو ما يتميز به المصنف عليه الرحمة من قوة الحجة والبرهان، ومقدرته الفائقة على عرض القضايا والمسائل بشكل يدلك على مدى تمكنه من علوم الدين واللغة، ثم إن أسلوبه يميزه تمييزاً، وإن كان يمثل نموذجاً من الكتابة التي سادت ذلك العصر الذي عاش فيه المؤلف، وهو الذي يميل إلى السجع والتقفية، ويكفينا مثالاً على ذلك المقدمة المختصرة التي كتبها المصنف لحاشيته، ومدح فيها السلطان "سليمان القانوني" الذي أهدى كتابه إليه، وهذا الأسلوب ينم عن تمكن العلامة "عصام الدين" من اللغة العربية وعلومها، وخاصة أن حاشيته على البيضاوي تمتلئ بالقضايا النحوية والإعرابية، بل إنه يعتمد في شرحه على تركيب الجملة، ويستدل بمواقع الألفاظ من الإعراب، ويقدّر ما يراه مناسباً لتوضيح ما يميل إليه، وكل هذا لا يصدر إلا عن عالم ضليع في اللغة العربية وعلومها.

لقد اتبع المصنف في حاشيته أسلوباً مشوقاً ومعروفاً في نفس الوقت، وهو أسلوب السؤال والجواب، وقد سبقه "الكشاف" لـ "الزمخشري" بذلك، بل إن هذا أسلوب تميزت به كتب التفاسير في تلك الفترة، فيقول :

فإن قلت كذا، قلت كذا. والحاشية كلها على هذا النمط، فلا نرى داعياً لضرب أمثلة هنا، إذ أننا نجدها في كل صفحة تقريباً.

ونلحظ على "عصام الدين" في حاشيته أيضاً أنه كثيراً ما يتعمد توجيه ولفت النظر إلى ما يقول، ويمتدح ما يرى، فيقول في صفحة 11 من المخطوطة: 1 ".... ولذا جعل صاحب الكشاف الاستغراق وهماً، فخذه، فإنه مما طرح فيه الأنظار، ونحن ممن أعطى سهماً لا يمكن تحصيله بكثرة الدراهم والدنانير".

ويقول: "فخذ ما آتيتك، إنه مما أتاني إلهام العليم الحكيم". ويقول: "وبعد الفراغ من توضيح تفسيراتهم للفاتحة، وإيفاء ما وهبني الله تعالى في أثناءه، أذكر لك ما ألهمني الله في تفسير فاتحة كتابه، عسى أن يكون ذخراً لي في سلوك الصراط المستقيم إلى جنة النعيم، ونيل لقاء الرؤوف الرحيم أبد الابدين". ويقول: "فقد حفظت من ملهماتنا وجوهاً أربع، أحسنها الرابع، فليكن عندك نصب العين فيما بين الودائع". ويقول: "وهناك توجيه أقرب وإن فات العلماء كلهم"، وغير ذلك كثير[42].

و "عصام الدين" يجلّ الأساتذة والأئمة، حتى وإن اختلف معهم في الرأي، أو رأى ما لا يرونه ، فإنه يعبر عن رأيه وفكره دون تعرض للآخرين بلفظ جارح أو كلمة نابية، بل يستخدم أرق الألفاظ ليلفت نظر القارئ إلى أنه يختلف مع الآخر في هذه النقطة بعينها، ولذا تجده يستعمل لفظ "مسامحة"، وهو كثير في المخطوطة.

ولا يعني هذا أن "عصام الدين" يتردد في إبداء رأيه أو اعتراضه، بل على العكس يبديه صراحة بقوله : "ويردّ عليه"، فيقول مثلاً : ".. قوله : والأظهر أنه وصف في أصله: يردّ عليه أنه لو كان إله وصفاً له في أصله لم يكن له تعالى اسم يجري عليه صفاته، ولم يستعمل العرب شيئاً حتى وضعوا له لفظاً يجري عليه صفاته، فكيف يتأتى منه إهمال وضع لفظ له تعالى...." [43]. وأحياناً يرجح ما يراه هو على ما يرى "البيضاوي" بقوله "والأظهر"، وهو كثير في المخطوطة، أما عندما يكون قصده إبداء رأيه بشكل واضح فإنه عادة يستخدم مثل هذه الألفاظ: "وأنا أقول.... وأقول.... ونحن نقول..." وهكذا، وهو كثير في المخطوطة أيضاً.

ومن المميزات التي يتميز بها "عصام الدين" في مخطوطته دقة الفكر وعمقه، والقدرة على الوصول إلى أدق التفاصيل بسهولة. انظر إليه وهو يشرح قوله تعالى: "كتب عليكم القتال وهو كره لكم"، فيقول: "...

مستعملاً في الآية على سبيل المجاز، لا أن غثباته بمعنى الإكراه على سبيل المجاز، ووجه كونه مجازاً أنه أريد به المكره عليه، حيث حمل على نفس القتال، ثم هذا الحمل أيضاً مجاز إن كان على سبيل الادعاء... وقوله: وهو كره، بظاهره حال مؤكد، إذ القتال لا ينفك عن كونه كرهاً ... ويقال : أريد به القتال في حال كون الخصم أكثر عدداً، فإنه مع المساواة أو القلة كأنه غير مكروه لعدم خوف المغلوبية..." [44]، والأمثلة من هذا القبيل تمتلئ بها المخطوطة.

ونلمس مثل هذا العمق عند شرحه لآيات سورة النساء: (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَآءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا، وَآتُوا النِّسَآءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا) [45]، وغيرها من الآيات.

كما يتميز "عصام الدين" بحياديته في مخطوطه، فهو لا ينحاز إلى رأي عالم بعينه، حتى ولو كان غير مرجح عنده، فمع أنه يشرح تفسير "البيضاوي"، إلا أنه لم يتردّد في ترجيح بعض الآراء على رأي "البيضاوي" إذا رأى أنها ترجّحه فعلاً، فنراه أحياناً يؤيد قول الزمخشري في الكشاف على قول البيضاوي، يقول: "... فقوله – أي البيضاوي -: ويجادلونك: جواب غير مستقيم، ولعله سهو، والصواب ما في الكشاف"[46].

ونجد "عصام الدين" أحياناً لا يعلق على رأي "البيضاوي" رغم اختلافه معه، وإنما يكتفي بالإشارة إلى أنه لا يؤيد هذا الرأي، فيقول على سبيل المثال: "... قوله: يشغله حساب عن حساب، لا يفيده أسرع الحاسبين"[47].

ومن مميزات "عصام الدين" في مخطوطته هذه أنه لا يفوته أن يوثق ما ورد في تفسير "البيضاوي" من القضايا الفقهية بالأدلة والأحاديث، وذلك مما يجعل القضية محل المناقشة أوضح في الذهن، وأكمل في العيون، يقول: "... قوله: وتعليم المسألة، أي الدّعاء، حيث أشير فيه إلى أنه ينبغي للسائل أن يحمده أولاً بما هو حقه، ويحضر أمره في المسئول عنه حتى يجاب، فما في بعض الأحاديث أنه ينبغي أن يصلي عليه – عليه السلام – أيضاً فمن مقويات الإجابة[48] ... وهو إشارة إلى ما ورد في السّنة من أحاديث شريفة مفادها أن من سنن الدعاء حمد الله والصلاة والسلام على رسوله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كل دعاء

مجدب حتى يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، وهو حديث حسن[49]. وعن فضالة بن عبيد قال: بينما رسول الله قاعداً إذ دخل رجل فقال: اللهم اغفر لي وارحمني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عجلت أيها المصلي، إذا صليت فقعدت فاحمد الله بما هو أهله، وصل عليّ، ثم ادعه، فقال: ثم صلى رجل آخر بعد ذلك، فحمد الله وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أيها المصلي، ادع، تجب[50].

وقد حرص "عصام الدين" في نهاية بعض السور على أن يدعو الله تعالى لنفسه بالتوفيق، ومثال ذلك ما كتبه في نهاية تفسير سورة البقرة، يقول: "... اللهم كما وفقتنا للتأمل فيه، وبينت ما ألهمتنا، وفقنا لشكرك بالعمل به، والاصلاع على بطونها، وارزقنا التوفيق لتتبع جميع كلامك، واجعله زخراً لنا شفيعاً مشفعاً، وصل على من أنزلت إليه كتابك، وأرسلته إلينا بخطابك، وعلى آله وصحبه الفائزين بقربك"[51].

ورغم ذلك فإننا نجد "عصام الدين" لا يكتب شيئاً في آخر بعض السور مثل سورة آل عمران، وهذا الذي فعله "عصام الدين" هو على عكس ما فعله "البيضاوي" الذي حرص على أن يتبع كل سورة من سور القرآن بعدة أحاديث في فضلها، وإن كانت هذه الأحاديث موضوعة كما قرر ذلك الدكتور الذهبي في الجزء الأول من كتابه "التفسير والمفسرون"[52] فقال: "كما أننا نجد البيضاوي قد وقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف من ذكره في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها، وما لقارئها من الثواب والأجر عند الله، وقد عرفنا قيمة هذه الأحاديث، وقلنا إنها موضوعة باتفاق أهل الحديث، ولست أعرف كيف اغتر بها البيضاوي فرواها، وتابع الزمخشري في ذكرها عند آخر تفسيره لكل سورة مع ما له من مكانة علمية، وسيأتي اعتذار بعض الناس في ذلك، وإن كان اعتذاراً ضعيفاً لا يكفي لتبرير هذا العمل الذي لا يليق بعالم كالبيضاوي له قيمته ومكانته"[53].

ولكن مما يؤخذ على العلامة "عصام الدين" في حاشيته أننا نجده يعمد أحياناً إلى إجمال الكلام بشكل يصعب فهمه، فلا يوضحه ولا يفصله، فمثلاً في تفسير قوله تعالى: (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَآءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّه لَكُمْ قِيَامًا) يعلق على قول "البيضاوي": "وهو الملائم"، فيقول: "أي جعل الخطاب للأولياء ملائم للآيات المتقدمة كلها في وجه، ولأكثرها في وجه

آخر، فتفطن"[54]. وهنا لانستطيع أن نحدّد ما المقصود بأن هذا الخطاب ملائم للآيات المتقدمة في وجه، ولأكثرها في وجه آخر.

وهناك تعبير أطلقه العلامة "عصام الدين" ضد المرأة بشكل عام، حيث اتهمها بكونها "منبع الأكاذيب" في معرض حديثه عن نساء الجنة حيث قال: "وبين نساء الجنة والدنيا بأنهن لسن كنساء الدنيا منبع للأكاذيب..." [55]. والحقيقة أنّني هنا في حيرة من الأمر، فالعلامة قد ألصق التهمة بنساء الدنيا جميعاً، ومنهن الطاهرات المطهرات وأمهات المؤمنين، وحاشا لله أن يكنّ منبعاً للأكاذيب، وهل هذا يعني براءة الرجل من نفس التهمة، ولن أدخل في تفصيل ودفاع، حتى لا يظن بأنني أدافع عن المرأة لأني امرأة، ولكني على يقين من أن نساء الدنيا كلها لسن منبعاً للأكاذيب، وإن كنت لا أنفي أن بعضهن كذلك.

على أيّة حال لقد بذل العلامة "عصام الدين" جهداً كبيراً في حاشيته، فقدّم عصارة علمه فيها، وإن كان يؤخذ عليه أيضاً أنه قد أطال كثيراً في شرح بعض الأجزاء، واختصر كثيراً في البعض الآخر، فلقد استغرق أكثر من نصف المخطوطة في شرح سورة البقرة والجزء الأول، بينما النصف الآخر من المخطوطة قد احتوى على شرحه للثمانية أجزاء الباقية، حتى أن الأجزاء: السادس والسابع والثامن، كل منها لم يحظ بأكثر من ثلاثين صفحة من صفحات المخطوطة.

مصادر المخطوطة

لقد اعتمد العلامة "عصام الدين الأسفراييني" في حاشيته على كثير من المصادر، استفاد منها كلها بدرجات متفاوتة، فهناك بعض المصادر التي نقل عنها بدرجة تكاد تمنعك من الإشارة إليها في الحواشي، حيث تجده في الصفحة الواحدة نقل منها ما لا يقل عن عشر مرات، ومن بين هذه المصادر والمراجع:

1. تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للإمام جاد الله محمود بن عمر الزمخشري (م : 528هـ).
2. حاشية التفتازاني على الكشاف – مسعود بن القاضي فخر الدين، الشهير بسعد الدين التفتازاني، وكذلك شرح التلخيص.
3. القاموس المحيط للفيروز آبادي، محمد بن يعقوب.
4. الصحاح للجوهري، إسماعيل بن حماد.

وهناك بعض المصادر التي أخذ منها بحسب الحاجة، ومنها :

1. الكافية لابن الحاجب، عثمان بن عمر، وكذلك الشافية.
2. حاشية السيد السند الجرجاني، وكذلك شرح التلخيص.
3. التسهيل لابن مالك، محمد بن عبد الله.
4. كتب الرضيّ الشريف.
5. مفتاح العلوم للسكاكي،يوسف بن أبي بكر محمد بن علي سراج الدين.
6. كتاب سيبويه، عمرو بن عثمان.

وبنظرة على هذه المصادر يتضح لنا تنوعها، مما يدل على قيمة المخطوطة وما ورد بها من معلومات.

مقارنة المخطوطة مع غيرها من المخطوطات

عندما نلقي نظرة سريعة على بعض الحواشي التي كتبت على تفسير الإمام "البيضاوي" فإننا نلحظ أن كثيرين من مؤلفيها قد اتخذ كل منهم لنفسه منهجاً خاصاً في كتابة وتأليف حاشيته أو شرحه، وهذا المنهج بالطبع يكون تعبيراً عن ميول صاحبه واتجاهاته، وطبقاً لاختلاف المنهج وجدنا تفاوتاً بين هذه الحواشي والشروح، فمن الشراح والمحشين من يميل إلى الاختصار، ومنهم من يميل إلى الإطناب والتطويل، ومنهم من يتخذ بين ذلك سبيلاً، ومنهم من يميل إلى الناحية اللغوية، ومنهم من يميل أكثر إلى الناحية التفسيرية والتوضيحية، ولنأخذ على سبيل المثال لا الحصر حاشية محي الدين شيخ زاده، والمشهورة باسم "حاشية شيخ زاده"، وحاشية الشهاب المسماة "عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي"، وحاشية العلامة "عبد الحميد السيالكوتي"، إضافة إلى الحاشية محل الحديث، أي حاشية العصام على البيضاوي.

فإذا ما ألقينا نظرة عامة على هذه الحواشي لفت نظرنا مباشرة ذلك التفصيل الذي نجده عند العلامة "السيالكوتي"، إذ يفيض في الشرح إفاضة كبيرة، حتى أن الجزء الذي كتبه فيما يزيد على ستمائة صفحة كان شرحاً لما لا يزيد على جزأين فقط من سورة البقرة. ومن الجدير بالذكر أن العلامة "عبد الحميد السيالكوتي" لم يقم بنقل نص البيضاوي كاملاً على حاشية شرحه كما فعل "الشهاب" و "محي الدين شيخ زاده"، بل اكتفى بقوله "إلى آخره" ليدلك على أنه تعمد أن لا ينقل النص كاملاً، أضف إلى ذلك أن هناك أخطاءاً إملائية كثيرة فيما نقل من نص

البيضاوي، فيكتب "بنيانه" بدلاً من "تبيانه"، و "سيصلى" بدلاً من "ويصل" و "سألك" بدلاً من "وأسألك"[56]، ويقدّم ويؤخّر في بعض الألفاظ مثل ما كتب: "وسلم علينا وعليهم" بدلاً من "وسلم عليهم وعلينا"، وإن كنّا نجد مثل هذه الأخطـاء في كل المخطوطات بلا استثناء.

أما حاشية "شيخ زاده" فإن أوّل ما نلحظ فيها هو اهتمام المؤلف في كثير من الأحيان بالتقديم لكل سورة قبل الدخول في شرحها، ثم يدرج في هذا التقديم تلخيصاً لمطالب السورة، والأحكام التي جاءت في ثناياها، ونأخذ على سبيل المثال ما كتب في أول سورة النساء، يقول:

" قوله تعالى: (اتَّقُوا رَبَّكُم): اعلم أنّ الله تعالى افتتح هذه السورة الكريمة بالأمر بتقوى الله الذي هو خالقنا على كيفية بديعة، وهي أنه خلق نفساً واحدة من تراب أولاً، ثم خلق من بعض أضلاعها زوجها، ونشر من تلك النفس وزوجها المخلوقة منها بنين وبنات لا تحصى، ثم ذكر سائر التكاليف المذكورة في هذه السورة من التعطف على الأولاد والنساء والأيتام والرأفة بهم، وإيصال حقوقهم وحفظ أموالهم، وبهذا المعنى ختمت السورة، وهو قوله: يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ، وذكر في أثناء هذه السورة أنواعاً أخرى من التكاليف، وهي الأمر بالطهارة والصلاة وقتال المشركين، وغيرها، والله أعلم أن هذه التكاليف شاقة تستثقل الطباع لها، والنفوس لا تتقيد بها ما لم يحمل عليها حامل، وذلك الحامل هو تقوى الإله القادر على كل شيء، فإن تقوى الله عز وجل هي الحامل على إتيان كل خير، واجتناب كل شر، فلذلك افتتح الأمر بالتقوى، ورتب عليه سائر التكاليف"[57].

على العكس من ذلك نجد حاشية الشهاب، وكذلك حاشية العصام، فإننا لا نجد فيهما تقديماً مثل الذي نجده عند "محي الدين شيخ زاده"، إذ أنهما يتطرقان إلى الشرح مباشرة. وهناك أمر آخر يلفت نظرنا في حاشية "محي الدين شيخ زاده"، وهو مما نحمده له في هذا الخصوص، ونقصد اهتمامه بالحديث عن متعلقات الآية التي يشير إليها في حاشيته، بمعنى أنه في كثير من الآيات يشير إلى سبب نزولها، ونأخذ لذلك مثالاً الآية التي تقول : "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا"[58]، فقد أشار "البيضاوي" إلى سبب نزولها إشارة بسيطة، لكن "شيخ زاده" فصّل ذلك تفصيلاً قبل أن يتطرق إلى المباحث اللغوية التي امتلأ بها الكتاب، في حين نفتقد هذا التفصيل عند الشهاب وعند العلامة "السيالكوتي".

والحقيقة أن المباحث اللغويّة التي أشرنا إليها آنفاً هي العامل المشترك بين كل حواشي "البيضاوي"، فلقد اهتمت كلها بالناحية اللغوية، جنباً إلى جنب مع الناحية التفسيرية التوضيحية، ويرجع السبب في ذلك إلى أن تفسير البيضاوي نفسة هكذا، ففيه المباحث اللغوية، والفقهية، والكلامية، وغيرها، وقد انعكس كل هذا على الحواشي والشروح التي كتبت له.

وأخيراً نقول بأن المقارنة بين الحواشي التي كتبت على البيضاوي تحتاج إلى مجلدات عديدة وسنين عدة، وتصلح لأن تكون رسالة دكتوراه مستقلة ندعو الله أن يهيء لها من يقوم بعبء دراستها.

الهوامش

1. معجم البلدان – 1 : 246، 247.
2. دائرة المعارف الإسلامية – 2 : 121.
3. يرجع في هذا المقام إلى الكتب التالية :
   * معجم المؤلفين – 1 : 101 * روضات الجنات – 1 : 179
   * بروكلمان - 2 : 540 * كشف الظنون – 1 : 186
   * شذرات الذهب – ص 291 .
4. روضات الجنات – 1 : 180.
5. شذرات الذهب – ص 291.
6. الأعلام – 1 : 66 * كشف الطنون – 1916.
7. روضات الجنات – 1 : 180.
8. المرجع السابق– نفس الصفحة.
9. المرجع السابق – نفس الصفحة.
10. المرجع السابق– نفس الصفحة.
11. كشف الظنون – ص 190.
12. انظر: حاشية العصام على البيضاوي – تبسم منهاس - رسالة دكتوراه مخطوط بمكتبة جامعة بنجاب 1997م.
13. المرجع السابق – ص 39 . * روضات الجنات – 1 : 179.
14. كشف الظنون – ص 854.
15. المرجع السابق–نفس الصفحة.
16. المرجع السابق – نفس الصفحة.
17. روضات الجنات – 1: 179. * الأعلام – 1 :66.* كشف الظنون ص447.
18. روضات الجنات – 1 : 179 . * الأعلام – 1 : 66.
19. كشف الظنون – 1144.
20. روضات الجنات – 1: 179.
21. كشف الظنون – 1372.
22. روضات الجنات - : 179.
23. هذا الكتاب وما بعده حتى رقم (21) منقول عن روضات الجنات: 1:179.
24. كشف الظنون – 1146.
25. المرجع السابق – 1259.

26. المرجع السابق – 1614.
27. المرجع السابق – 2022.
28. يرجع في ذلك إلى المؤلفات التالية : * شذرات الذهب – 291.
* روضات الجنات – 1 : 179. * معجم المؤلفين - 1 : 101.
* كشف الظنون–1: 186.
29. روضات الجنات – 1 : 181.
30. انظر : * از سعدي تا جامي – علي أصغر حكمت – ص 85.
* طبقات الشافعية – ابن قاضي شهبة – ورقة 83 – نسخة المتحف البريطاني. * شيراز نامه – زركوب – ص 65.
31. الأعلام – الزركلي – 4 : 348.
* كشف الظنون – 1 : 186، 2 : 476.
* page 249 — T.S. Elliot —History of India
32. مرآة الجنان – 4 : 220.
33. مخطوطة عصام الدين على البيضاوي – ص 1.
34. راجع : * دائرة المعارف الإسلامية – اردو – 5 : 287.
* كشف الظنون – 1 : 186 وما بعدها. * معجم المؤلفين – عمر رضا كحالة – 6 : 97، 98. * الأعلام – 4 : 110.
* طبقات المفسرين – 1 : 248.
35. حاشية الخفاجي على تفسير البيضاوي – ص 1.
36. روضات الجنات – 435.
37. طرائق الحقائق – معصوم علي شاه – 2 : 662.
38. انظر : * البداية والنهاية . * التبيان في علوم القرآن – ص 685 .
* شذرات الذهب – 5 : 393. * دائرة المعارف الإسلامية اردو – 6 : 99.
39. حاشية العصام على البيضاوي – ص 1.
40. Page No : 68. — Catalogue Of Arabic Manuscripts In The British Museum
41. فهرست مخطوطات – عبد النبي كوكب – ص 18.
42. لمزيد من التفصيل راجع صفحات رقم : 17 – 20 – 57 – 135 – 247 – 311 من المخطوطة.
43. المخطوطة – ص 10.
44. المخطوطة – ص 194، وللتفصيل يراجع صفحات :295– 296– 290– 333.
45. المخطوطة – ص 294.
46. المخطوطة – 395 – 399.

47. المخطوطة – 405.
48. المخطوطة – ص 3.
49. صحيح الجامع الصغير – 4399، ويرجع إلى كتاب الدعاء – عبد الله الخضري – ص 23.
50. حديث صحيح رواه الترمذي – 9 : 449 – ويرجع كتاب الدعاء – عبد الله الخضري – ص 23.
51. المخطوطة – 232.
52. التفسير والمفسرون – 1 : 298.
53. المرجع السابق – نفس الصفحة.
54. المخطوطة – ص 295.
55. المخطوطة رقم 1 – ص 609.
56. حاشية السيالكوتي – ص 430.
57. حاشية شيخ زاده – ص 383.
58. حاشية الشهاب – ص 219.